

كل ذلك إشارة إلى أن الدعاء غذاء روحي، ومهدء يبعد الوسواس عن النفوس، ويزيح عنها قهر الحوادث باتصالها بخالق الكون، ورب السماوات والأرض، ولولا دعاء الإنسان، ومناجاته مع الله عز وجل، لانقطعت الصلة بينه وبين السماء، فالذي لا يدعو، ولا يناجي الله سبحانه، يكون قد أعرض عن الله، وجزأه: إعراضاً عنه. (قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) (الفرقان / 77). ومعنى ذلك أنه يبقى من غير أمل، لا يجد ملجأً يأوي إليه، أو قوةً يستند إليها، وتظل نفسه تائهة فلقه تتعلق بأسباب وأهية لا تغني عن الله شيئاً. يحكي لنا القرآن الكريم عن النبي يونس (ع) حين صار في بطن الحوت، وأطبقت عليه ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة قاع البحر، وظلمة بطن الحوت، لم يجد أية قوة قادرة على إنقاذه وإسعافه من هذه الورطة، سوى الاتصال بالله سبحانه، بالدعاء والتضرع إليه، وقد كان اليأس من الفرج والنجاة في تلك الساعات الحرجة القاسية يعتصر قلبه، ويضيق عليه، ووجد الأبواب كلها مغلقة دونه، سوى باب واحد، وهو باب الله تعالى. ويقول القرآن الكريم عنه: إنه لو لم يكن على ارتباط وثيق - في تلك الأزمة الشديدة - مع الله سبحانه لكان محكوماً عليه بالليث في مكانه إلى يوم القيامة، ولكن الأمر الذي عجل له بالخلاص والنجاة، هو دعاؤه واتصاله بالله عز وجل. (فَلَوْلَا أَنرَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّابِثٌ فِي بَطْنِهِ إَلَى يَوْمٍ يُدْعَتُونَ) (الصافات/ 143-144).

وما من نبي من أنبياء الله، إلا وتسليح بالدعاء في كل أحواله، خاصة للثبات والصمود في وجه الملمات والمصاعب، وفي حالات الشدة والعسر والضيق، وفي ساعات الخوف والاضطراب وهجوم الأجزان على النفس... نقرأ في القرآن الكريم نماذج من أدعيتهم التي كانوا يرددونها في الشدائد، ويستمدون العون من الله تعالى من خلالها، ويستلهمون القوة والعزم منها. (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء / 83). (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) (القمر / 10). (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) (الأنبياء / 89). (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء / 90). وهكذا. تجد القرآن حافلاً بأدعية الأنبياء.

وفي القرآن منهج خاص بالدعاء، لا يمكن أن يستغني عنه المؤمن في حياته، لأن الله العلاج الأنجع لمشاكله وآلامه. وقد كان للنبي (ص) وآله الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، دور كبير في تعليم الأمة أساليب الدعاء، وطرائقه، وأدائه، ومحتوياته، ومضامينه، وترويضهم على ممارسته في كل حال، بشكل لا ينقطع معه المؤمن عن الدعاء أبداً. وقد قال رسول الله (ص): "لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد". وعن جابر (رض) يرفعه: "لقد بارك الله للرجل في حاجة أكثر الدعاء فيها، أعطوها أو منعيها". وعن أمير المؤمنين علي (ع): "ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء". وعن الرسول (ص): "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله". وعن الإمام أمير المؤمنين علي (ع): "سلاح المؤمن الدعاء، وهو عماد الدين ونور السماوات والأرض".